دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الألسنية العقلانية وانتقاد علم النفس السلوكي
المصدر:	مجلة الفكر العربي المعاصر
الناشر:	مركز الإنماء القومي
المؤلف الرئيسي:	زكريا، ميشال
المجلد/العدد:	ع 23
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1983
الشهر:	يناير
الصفحات:	40 - 47
رقم MD:	432237
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	شومسكي ، نوام، العقلانية ، علم النفس ، السلوك الإنساني ، النظرية التوليدية التحويلية ، اللغات ، الكفايات اللغوية ، القواعد اللغوية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/432237

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

د.ميشال زكريا

الألسنية العقلانية
وانتقاد علم النفس السلوكي

« لا وجود للغة خارج إطار تصورها العقلي ، ومهما تكن خصائصها ، فهي تختص بها عبر المسار العقلي الفطري للجهاز العضوي الذي اوجدها ويوجدها في كل جيل ، وفي الوقت نفسه الذي يُوجد فيها الخصائص المتعلقة بشروط استعمالها . ويبدو لنا أن اللغة هي مفيدة لسبر المسار العقلي واكتشاف نظامه » .

نوام شومسكي
في « اللغة والفكر » ص ١٣٥

نعالج ، في مقالنا هذا ، نظرة الألسنية التوليدية والتحويلية التي وضع أسسها الالسني الاميركي نوام شومسكي[١] ، إلى اللغة ، واختلاف هذه النظرة عن النظرة السلوكية التي كانت الألسنية قد تأثرت بها قبل بروز النظرية التوليدية والتحويلية .

تنحو النظرية التوليدية والتحويلية منحىً عقلانياً بالامكان اعتباره النمط العقلاني المتماسك والوحيد الذي برز في السنين الاخيرة ، والذي استند على الدراسات التي تناولت اللغة وعملية اكتسابها . ويلتقي هذا المنحى مجدَّداً مع المذاهب والآراء العقلانية في مجال اللغة الانسانية ، والتي من ابرزها المذهب الديكارتي الفلسفي وآراء الفيلسوف الألماني همبولد . وقد تمَّ هذا الارتداد إلى الجذور العقلانية في وقت كانت فيه المذاهب السلوكية منتشرة انتشاراً واسعاً . فواضح انَّ شومسكي قد شعر بالحاجة الملحة للعودة الى التطلعات العقلانية التقليدية ، والتي بلغت أوجها في القرن السابع عشر . فاتخذ هذ المنحى العقلاني ، بالرغم من الاجواء الثقافية المحيطة به آنذاك في منتصف القرن العشرين ، والمتأثرة بمذاهب علم النفس السلوكي ، لأنَّه وعى ، بصورة مباشرة ، أن نمط البنى التي نلحظها ، في مجال الألسنية ، من خلال الدراسات السلوكية ليست ، في الواقع ، البنى القائمة ضمن الاستعمال اللغوي ، وأنَّ الأنموذج السلوكي القائم على المزاوجة بين المثير والاستجابة للمثير هو أنموذج سيكولوجي تبسيطي ، وبالتالي غير قادر على وصف مظاهر السلوك الانساني المثيرة للاهتمام .

الآراء السلوكية في مجال تحليل اللغة

يعتبر علم النفس السلوكي أن اللغة كناية عن مجموعة عادات صوتية (حلقيَّة) تكيَّفها مثيرات البيئة ، فلا تتعدَّى كونها ، بالتالي ، شكلاً من اشكال المثير فالاستجابة للمثير . فمتكلم اللغة يسمع جملة معيَّنة أو يشعر بشعور معيَّن فتحصل عنده استجابة كلامية دون أن ترتبط هذه الاستجابة بأي شكل من أشكال التفكير . فالاستجابة الكلامية مرتبطة بالمثير ولا تتطلب تدخل الأفكار أو القواعد النحوية[٢] .

يرى واتسن (Watson)[٣] ، الذي يُعتبر أبا علم النفس السلوكي ، أن علماء النفس لا يحتاجون إلى الاقرار بوجود العقل أو بوجود أي شيء آخر غير ملحوظ أو محسوس ، بهدف تحليل النشاطات والقدرات الانسانية التي يُشار إليها في الفكر الانساني ، بصورة عامة ، بأنها عقلية أو عقلانية . وقد وضع عنواناً جزئياً لفصل « اللغة والفكر » في كتابه « السلوك » هو التالي : « فصل يقضي ، بصورة نهائية ، على الوهم التالي الذي ينص على وجود شيء كمثل الحياة العقلية » . يُشير في فصله هذا الى أن ما يُسمِّيه علم النفس بالفكر ليس سوى عملية تكلم مع الذات ، وأن الكلام ، وإن لم يكن بالتمام حركات حلقية (إذ بالامكان الهمس دون اللجوء الى الحلق) ، إلا أنَّه نشاط حركي فقط . ودراسات علم النفس ينبغي ان تتناول ، برأيه ، فقط الاستجابات الملحوظة .

إن هذه النظرة الى اللغة ، وإن تعدَّلت بعض الشيء فيما بعد في المذهب السلوكي ، تبقى المنطلق الأساسي لتيارات سلوكية وتجريبيَّة متعدِّدة قد أثَّرت في مجال الألسنية السابقة للألسنية التوليدية والتحويلية . فالألسني الاميركي بلومفيلد رائد الألسنية الأميركية البنيانية يُحدِّد مثلاً دلالة الشكل اللغوي بأنها « الحدث العملي » الذي يقترن به الشكل اللغوي ، وبأنها الظرف الذي يتفوه فيه المتكلم بالشكل

اللغوي ، والاستجابة التي تحصل عند المستمع . ويُعطي في الفصل الثاني من كتابه «اللغة» حيث يتكلم عن استعمال اللغة ، المثل الشهير التالي : « لنفترض ان « جاك » و«جيل» يتنزهان . تشعر «جيل» بالجوع وترى تفاحة على الشجرة . تؤدي صوتاً يصدر عن حنجرتها ولسانها وشفتيها . يقفز « جاك » فوق السور ويتسلّق الشجرة ويقطف تفاحة يجلبها إلى « جيل » ويضعها في يدها . تأكل « جيل » التفاحة » .

يدرس بلومفيلد هذا المشهد من خلال الحادثة التي يصفها هذا المثل ويُشير إلى أن هذه الحادثة تتكوّن من الناحية الزمنية من القضايا التالية :

أ ـ أحداث عملية تسبق عملية التكلم .

ب ـ عملية التكلم .

ج ـ أحداث عملية تلي عملية التكلم .

يُشير بلومفليد إلى الأحداث السابقة لعملية التكلم من حيث أنها تكوّن المثير . وتكون عملية التكلم بمثابة الاستجابة للمثير . أما الاحداث العملية التي تلي عملية التكلم فهي تكوّن استجابة السامع . فاللغة إذاً برأي بلومفيلد سلسلة استجابات كلامية للمثير[٤] .

في ظل المذهب السلوكي ، يسعى علم النفس إلى تحليل السلوك الانساني من حيث هو تكوّن عادات . وتندرج من ضمن هذه العادات المتكوّنة ، العادات الكلامية (أي اللغة الانسانية) . فاللغة ترتد ، من هذا المنظار ، إلى مظاهرها الثانوية ، أي إلى مجموعة استجابات كلامية لأحداث عملية معيّنة . والخلط بين اللغة وبين مظاهر تعود لها ، نراه بوضوح عند عالم النفس الاميركي سكينر (Skinner) في كتابه « السلوك الكلامي » . وهذا الكتاب كان الهدف المباشر لانتقادات شومسكي التي انصبّت على المذهب السلوكي وعلى المنهجية التجريبيّة التي كوّنت الاطار المنهجي لهذا المذهب .

رفض الآراء السلوكية من الناحية السياسية والاجتماعية

يلفت شومسكي الانتباه ، في مؤلفاته المتعددة[٥] ، الى خطورة أبعاد النظرة السلوكية . ففي الحقيقة ، عندما يزعم علم النفس السلوكي بأنّ الانسان كناية عن صفحة بيضاء مصقولة (Tabula rasa) وبأن ما يقوم به المرء محدّد ، بصورة تامة ، بملكاته الموروثة وبتاريخ تعزيز المثيرات ، لا يعود هناك أيّ مجال لاستغراب أو لرفض ما قد يقوم به القيّمون على المجتمع أو الذين ينصّبون أنفسهم قيمين على المجتمع ، عندما يتوسلون أفضل التقنيات السلوكية لتكوين سلوك الانسان ومراقبته لما فيه مصلحة المجتمع .

وحين يتم اقناع المواطن بأن سلوكه نتيجة الشروط الوراثية أو الشروط المحيطة به ، فلا يجب أن يعترض إذا قام العلماء أو المفكرون برسم سلوكه وفق الشروط الخارجية جاعلين عملية ترويضه ومراقبته إنجازاً سلوكياً وتقنياً متطوراً . ولا يلزمنا وقت طويل لادراك ما تحمل هذه الصيغة من خطر مباشر على حريّة الانسان في تصرفاته وفي تقرير مصير حياته وحتّى مصير بلاده .

ينتقد شومسكي بشدّة علم النفس السلوكي . وذلك لأنّه يرى فيه ، في الحقيقة ، طريقة تفكير ملائمة للسيطرة التقنوقراطية وشكلاً من أشكال أيديولوجيا الانتاج الاجتماعي التي تُحوّل الانسان الى آلة لها مردود معيّن . فالسلوكيون ينقلون نتائج بعض الاختبارات التي أجريت على سلوك الحيوانات (الفئران ، كلب بافلوف . . .) الى مجال الانسان ، فيعطونها بعداً اجتماعياً بالغ الاهمية والخطورة . ففي اللحظة التي يُقر بعضهم فيها بمفهوم الجهاز العضوي الفارغ والطيّع وبأنّ الأفراد لا يمتلكون طبيعة سيكولوجية خاصة ، وبالتالي هم قابلون للتشكل ، يُبرّر هؤلاء محاولات إخضاع الافراد الى آراء الذين يدّعون امتلاك الحدس المناسب الذي يُؤهلهم لقيادة الجماهير . وبمجرد الاقرار بأنّ طبيعة الانسان ، في نواحيها السيكولوجية نتاج التاريخ والعلاقات الاجتماعية القائمة ، تُزال كل العوائق والحواجز في وجه تسلط أي حكم قائم .

يتساءل شومسكي عن سبب انتشار المذاهب السلوكية والتجريبيّة في مجال الدراسات الانسانية ، ويرده الى عوامل اجتماعية . والسؤال الممكن طرحه هنا هو الآتي : من يتقبّل هذه الآراء ، بل من ينشرها ويُقدّم لها الدعم الضروري لاستمرارها في غياب الادلة العلمية التي تدعم النظريات عادة ؟ والجواب واضح : الانتلجنسيا ، أو طبقة المثقفين ، ولا مجال للاختلاف حول الدور الذي تلعبه عادة الانتلجنسيا . هذا الدور كما هو معلوم يقوم على تحريك المراقبة الاجتماعية في اشكال مختلفة . ففي المجتمعات الاشتراكية تقود الانتلجنسيا المجتمع . والشعب صفحة بيضاء تختط عليها الانتلجنسيا الراديكالية الوعي الاشتراكي . وفي المجتمع الرأسمالي ايضاً ، تصل الانتلجنسيا الى الحكم بحجّة خدمة الدولة فتقوم ، بالتالي ، بتحريك المجتمع باتجاه المحافظة على الايديولوجيا الرأسمالية وعلى مؤسساتها .

تجد العنصرية أيضاً تبريراً لها في الآراء السلوكية والتجريبية . ففي ظل هذه الآراء يُحدّد الانسان بواسطة مجموعة خصائص طارئة . واللون هو أحد هذه الخصائص . من هنا الى الأخذ بالعنصرية خطوة واحدة .

في القرن التاسع عشر كانت هناك اصوات تصف ، على سبيل المثال ، الشعب الصيني بأنه شعب ذو مستوى أدنى من بقية الشعوب ومكوّن من شرقيين طيّعين[٦] . ولا نرى أيّة ضرورة للتعليق على جدّية هذا الزعم وعلى طبيعة الايديولوجيا التي تلجأ الى هذا النمطمن تصنيف الشعوب . ولئن تكن طبيعة شعب ما تتصف بالليونة والقابلية للتوجيه من الخارج ، فإن الاعتراضات على حكم الشعب هذا على يد شعب متفوق عنصرياً لا تعود مجدية . يُشير شومسكي في كتابه « من أجل أسباب تتعلّق بالدولة » ، الى تفاهة المزاعم العنصرية هذه والتي لقيت بعض الاقلام لنشرها .

يذهب شومسكي الى أبعد من ذلك ، إذ يُشير إلى أنّ بعض الفلاسفة التجريبيين قد ارتبطوا بالاستعمار . فيسمّي ، على سبيل المثال، الفيلسوف الانكليزي لوك (Locke) ، ويُلفت النظر إلى أنّ حياته المهنية قد ارتبطت ، بصورة وثيقة ، بالاستعمار[٧] . ويتكلم عن تحالف مؤقت قام بين الفلسفة التجريبيّة وبين الاستعمار الناشىء آنذاك في انكلترا . وذلك لأن الاستعمار كان بحاجة ملحة الى الآراء العنصرية الواضحة والمبطنة لدعم مشاريعه التسلطية .

مما لا شك فيه أن المذاهب العقلانية تحمل ، في أسسها وفي نظرتها الى الجوهر الانساني ، مواقف مناهضة للعنصرية . ففي ظل العقلانية ، ليس من السهل القبول بالآراء العنصرية لأنّ الفكر والنفس لا لون لهما . ولا مجال ، بالتالي ، للتمييز بين شعب وآخر . فإمّا أن يكون الانسان آلةً وإمّا أن يكون بشراً شبيهاً بأمثاله من البشر. والاختلافات بين إنسان وآخر لا تطال الجوهر الانساني والنفس الانسانية . في حين نلاحظ ، في المقابل ، ان من السهل ، في ظل الآراء السلوكية والتجريبية ، تقبُّل الآراء العنصرية .

يقارن شومسكي بين هذه المزاعم العنصرية وبين الآراء السلوكية . فعلم النفس السلوكي يزعم ، في الواقع ، أنّ الشعب الصيني ليس هو الشعب الوحيد الطيّع بطبيعته ، بل إن الانسان بصورة عامة طيّع وإنّ التجارب العلمية قد أظهرت وهم الاعتقاد بالحريّة وبالكرامة . وكل ما يقوم به المرء هو محدد بصورة تامة بواسطة ملكاته الموروثة وتجاربه من حيث تعزيز الاستجابات للمثيرات . هذا الموقف من الانسان يُشير اليه شومسكي بأنه لا اخلاقي ويُمهّد لانتشار النزعة التسلطية . بالاضافة إلى أن هذه المبادىء عند إخضاعها للبحث العلمي الموضوعي تبدو لنا خالية من أي محتوى علمي . وبالتالي ، لا يمكنها ان تُحلل السلوك الانساني تحليلاً علمياً واضحاً .

رفض الآراء السلوكية من الناحية العلمية

يركّز شومسكي ، في انتقاداته التي تتناول الآراء السلوكية ، على أنّ المفاهيم التي ترتكز عليها هذه الآراء كالمثير والاستجابة للمثير وعملية تعزيز الاستجابات ، لا تُحدَّد بصورة علمية وافية . فالمثير يتم تحديده ولحظه عندما تُلحظ الاستجابة التي يُثيرها . وهذا ، بالذات ، ما يدفع شومسكي إلى القول بأن مفهوم المثير ، في إطار النظرة السلوكية ، لم يعد مفهوماً موضوعياً وذلك لأنّه لم يعد جزءاً من العالم المحيط بالانسان ، إنما أصبح جزءاً من جهاز الانسان العضوي ، ولا يُمكن بالتالي التكهُّن بالسلوك الكلامي من خلال المثير الذي يرتد عند محاولة تحليله إلى البيئة المحيطة بالمتكلم . وذلك لأن تمييز المثير لا يحصل إلا حين تتم الاستجابة له . فتحديد علم النفس السلوكي للمثير وللاستجابة للمثير هو تحديد دائري .

غني عن الذكر أن المفاهيم التي تحدَّد بصورة دائرية ، لا تعود بأيّة فائدة علمية حتّى على مستوى الوصف . وبالتالي ليس بامكان هذه المفاهيم أن تحلل السلوك الانساني والقدرات الانسانية ومن ضمنها قدرة الانسان اللغوية .

يُشير التحليل السلوكي الى أن المنجزات الانسانية : الشعر ، والادب ، والعلم ، بالامكان تفسيرها من حيث أحداث البيئة المحتملة . فالبيئة المحيطة بالانسان هي التي تجعله رحيماً وحكيماً . مما يستتبع أن بالامكان رسم كل المسائل العائدة الى الشعور والمعرفة والغايات ، من خلال تأثيرات البيئة التي يتعرَّض لها الانسان ، وأن كل ما يقرر الانسان القيام به من أعمال تحدِّده ، في الواقع ، أعماله السابقة . ويُشير التحليل السلوكي أيضاً إلى أنه بالاضافة الى عمل البيئة هذا ، يقوم التعزيز الحاصل من الاستجابات المتكررة للمثير ، بتحديد السلوك الانساني .

لا بد من القول هنا إنّ هذه المفاهيم السلوكية غامضة ولا تأتي بأيّة فائدة الى مجال إدراكنا للقضايا التي يقوم عليها السلوك ، أي للملكات الموروثة ولطرق تعزيزها . فبرأي السلوكيين يتم وصف السلوك الانساني من خلال السلوك الانساني وحده ، وأن الخبرة باقتران المثير المشروط بالاستجابة للمثير فيما بين الوحدات اللغوية أو بين الوحدات اللغوية والاشياء التي تشير اليها الوحدات ، تقوم بتحديد الاستجابات المحتملة ، وأن المزاوجة هذه بين المثير والاستجابة للمثير هي التي تحدد تواتر الوحدات التي بالامكان ملاحظتها في المدوَّنة الكلامية .

إن الانموذج السلوكي هذا لا يمكنه أن يحلل عمل الكلمات كأشياء تحتوي على معنى وبالتالي ، لا يمكنه أن يحلل القضايا

السيكولوجية القائمة ضمن تفهم الجمل وإنتاجها . وقد شدَّد شومسكي في انتقاداته للمذاهب السلوكية والتجريبيَّة على أن هذه المذاهب تبدو له خاطئة من الناحية الفلسفية ولا يمكن دعمها بالأدلة من ناحية علم النفس ولا يُمكن تقبلها كنظريات في مجال العلوم الطبيعية[٨] .

ينتقد شومسكي المذاهب السلوكية والتجريبية من منطلق عقلاني ثابت وملائم لتحاليله في مجال دراسة اللغة واكتسابها . إنه يرفض تفسير المقدرة اللغوية تفسيراً آليّاً . واللغة ، بنظره ، ليست ، في الواقع ، مجموعة عادات كلامية وهي مختلفة عن لغة الحيوان ، وتتسم بخصائص مميِّزة ، ويرفض اعتبار عملية الاكتساب في مجال اللغة نتيجة تأثير المحيط على الطفل .

الألسنية العقلانية

قلنا إنّ الألسنية التوليدية والتحويلية لمؤسسها نوام شومسكي تكوَّن حالياً أهم نظرية عقلانية تعالج قضايا اللغة الانسانية واكتسابها وعلاقتها بالمعرفة الانسانية بصورة عامة[٩] . فاللغة الانسانية تَظهرُ للمقدرة اللغوية الانسانية التي هي بالذات مكوَّن من مكوِّنات المعرفة الانسانية . لذلك تنظر هذه النظرية إلى اللغة على أنها نتاج عقلي خاص بالجنس الانساني ومكوَّن من مكوِّنات العقل الانساني وبالتالي ، لا يمكن اعتبار اللغة عادات كلامية مكتسبة كما هو الحال في المفهوم السلوكي للاكتساب .

عندما انتقد شومسكي الألسنية البنيانية المتأثرة بالمذاهب السلوكية ، قام بعمله هذا بعد أن استنفد المعطيات النظرية الخاصة بمبادئها ، فقال بضرورة العودة الى بعض المسائل التي أثارها القدامى ، واعادة اكتشافها وتبنِّي قضاياها العقلانية من منطلقات ألسنية علمية صرفة . وهذا الاتجاه الذي نراه بوضوح في النظرية التوليدية والتحويلية ، ليس نابعاً من رغبة في إحياء القديم ، بل بالامكان القول إن التطور الذاتي للألسنية وخلاصة الابحاث المتطورة التي أجريت في إطار اللغة واكتسابها هو الذي أضفى على هذه النظرية الاتجاه العقلاني هذا الذي اقرَّ مجدَّداً بحقيقة بعض المفاهيم الفلسفية الاساسية ، وذلك بعد أن ابتعدت عنها الألسنية البنيانية[١٠] .

وصورة اللغة ، كما تتبيَّن لنا في ضوء هذه النظرية ، واضحة ، وإن لم تكن ، بأي حال من الأحوال ، تبسيطية كما في إطار المذاهب السلوكية . فاللغة انعكاس للعقل الانساني ، ليس بمعنى أن الانسان ينتجها ويتعلمها ويتكلمها فحسب ، بل بمعنى أن اللغة هي كما هي فقط ، لأن العقل الانساني هو كما هو . وإن الانسان ، من حيث هو إنسان بالذات ، مهيأ فطرياً لاكتساب اللغة ولاستعمالها . وليس كون اللغة الانسانية انعكاساً للذكاء الانساني هو ما يؤهل الانسان لتعلمها ، إنما كونها خاصيّة انسانية مميِّزة .

غني عن الذكر أن هذه الصورة للغة في النظرية التوليدية والتحويلية تختلف ، بصورة جذرية ، عن صورة اللغة كما تبدو لنا في المذاهب السلوكية ، أي كعادات واستجابات سلوكية شبيهة بالسلوك الحيواني القابل للتشكّل ، وفارغة من كل الحقائق العقلية التي ارتكزت عليها الفلسفات الانسانية .

اللغة خاصيّة إنسانية

إنّ المفاهيم ، المثير والاستجابة للمثير وتعزيز الاستجابات ، التي ترتدي بعض المعاني في الاختبارات التي تجرى على الفئران أو الكلاب أو الحمام ، تفقد ، في الواقع ، كل معانيها وكلَّ مسوّغاتها عندما يتعلَّق الأمر باللغة الانسانية . فتصبح هذه المفاهيم مجرَّدَ تخيلات وأوهام عارية من كل محتوى حقيقي ومن كل صفة علمية . مردُّ ذلك إلى ان الانسان هو غير الحيوان يمتلك خصائص عقلية ليس بالامكان نكرانها دون الاساءة الى الموضوعية العلمية . فاختبارات بافلوف وغيره جعلت بعض علماء النفس يعتبرون أن سلوك الحيوانات (وحتى الحيوانات المتفوقة اي الانسان بنظرهم) ، كناية عن ردَّات فعل مشروطة يقوم بها الجهاز العضوي استجابة الى مثيرات تأتي من العالم الخارجي . ولئن قارنَّا بين « لغة » الحيوان وبين اللغة الانسانية لتبيَّن لنا ، بوضوح ، خطأ المحاولات التي قام بها السلوكيون لجعل عملية التشريط الجارية على الحيوانات تشمل في مفاهيمها السلوك الانساني . وذلك لانَّ اللغة الانسانية تختلف عن اللغة الحيوانية ليس فقط كمِّياً بل ايضاً نوعياً . ففي حين نلاحظ أن « اللغة » الحيوانية (أو الاصوات التي تصدر عن بعض الحيوانات) تنظيم مغلق يحتوي على عدد محدَّد من الصرخات (أو الاشارات عند النحل) ، التي تقترن بقضايا محدَّدة ، كالجوع والسرور والغضب والرعب ، نلاحظ أنّ اللغة الانسانية تنظيم منفتح وخلاّق يحتوي على عدد لامتناهٍ من الجمل[١١] .

ان مبادىء التنظيم اللغوي الانساني تختلف عن مبادىء التنظيم « اللغوي » الحيواني . فبالامكان التعبير ، بواسطة اللغة الانسانية ، بصورة غير متناهية ، عن الافكار والمشاعر والغايات المتجددة . مثلاً عندما نقول: « لقد آن الاوان لتعديل البرامج المدرسية والجامعية في لبنان بحيث يُفسح المجال امام تعليم مواد الألسنية المتنوعة » ، فنحن لا نقوم باختيار تعبير من لائحة تعابير محدَّدة ، انما نعبِّر تعبيراً حرّاً نابعاً من صميم اعتقاداتنا الفكرية . وهذه الجملة التي أشرنا اليها

هي جملة من مجموعة جمل لا متناهية تكوّن اللغة العربية . فكل متكلم للغة قادر على انتاج وعلى تفهم عدد لامتناو من جمل لغته لم يسبق له سماعه من قبل أو التلفظ به . وتختص هذه المقدرة بالانسان ، وبالذات من حيث هو إنسان . ولذا لا نجدها عند أي كائن آخر .

تُظهر الدراسات والاختبارات التي تتناول الشمبانزي ، أنّ لهذه الحيوانات تصرفات تنم عن ذكاء ينجم عنه تواصل اجتماعي وبنى حركية ـ حسّية لدى هذه الحيوانات . إلا أن ما لم يتوصل اليه العلماء هو أن يُكسبوا هذه الحيوانات تنظيماً يحتوي على بعض السمات اللغوية الأساسية ، وبخاصة سمة الابداعية . وتدل الابحاث التي أجريت على المصابين بالأفازيا الشاملة أن بالامكان إكسابهم تنظيماً شبيهاً بالتنظيم الممكن اكسابه للشمبانزي (بنى حركية ـ حسّية) . « مما يدل ، كما يقول شومسكي ، على أن ما ينقص الشمبانزي هو هذا الجزء الصغير الصغير من قشرة الدماغ اليسرى المسؤولة عن البنى المميِّزة والخاصة باللغة الانسانية »[١٢] .

مما تجدر الاشارة اليه ، هنا ، أن تعليم اللغات قد قام في السنين الأخيرة على مفاهيم علم النفس السلوكي . واقتصرت المنهجية التعليمية على ما يُسمَّى بالتمرين البنياني الذي يهدف إلى تركيز الوحدات اللغوية في ذهن التلميذ بصورة آلية ومنظمة وعن طريق الترداد المتواصل . وينحصر عمل الأستاذ في أن يُلقي بالبنى اللغوية في ذهن التلميذ عن طريق جعله يستجيب لجمله بصورة آلية . فصورة الاستاذ ، هنا ، هي صورة المدرِّب الذي يضع التلميذ في ظل سيطرته الايحائية ويطلب منه ترداد المادة التي يضعها بين يديه من دون أن يسمح له بالتفكير فيها . ويطلب منه الاستجابة التلقائية للمثيرات التي يرسلها باتجاهه . ويُبقي الاستاذ التلميذ في دائرة مراقبته تفادياً لأي استجابة خاطئة قد تُسيء الى عملية التعليم الآلية هذه .

مما لا شك فيه أن التغيير الحاصل في مجال الألسنية ، بعد الانتقادات التي وجهها شومسكي الى الألسنية البيانية والى علم النفس السلوكي ، سيؤثر حتماً في مفاهيم تعليم اللغة من خلال اعتماد المبادىء البنيانية والسلوكية . ولن نستطرد هنا في هذا الموضوع وذلك لأنه سبق أن وضعنا مقالاً ننتقد فيه اعتماد المذهب السلوكي في تعليم اللغة[١٣] .

عندما يتكلم شومسكي عن قدرة الانسان على انتاج عدد غير متناو من الجمل ، فهو يُشير الى المظهر الابداعي الخاص باللغة الانسانية . فالسلوك اللغوي العادي يمتاز بالابتكار وبالتجدد ، عبر بناء جمل جديدة وإقرار بُنى جديدة تتلاءم مع المقدرة الانسانية على استعمال اللغة الاستعمال الطبيعي والتجددي ، البعيد كل البعد عن المفهوم الآلي الذي يتضح عند السلوكيين عندما يعتبرون أن الاستعمال اللغوي لا يتعدَّى كونه ردَّات فعل مشروطة بعامل المثير . وهذا الاستعمال التجددي لا يمكن ، بأي حال من الاحوال ، اعتباره ترداداً لما سبق أن اختبره أو سمعه الانسان .

إنّ الاستعمال اللغوي ليس فقط تجددياً ، إنما هو أيضاً لا يخضع لأيّة مثيرات ملحوظة خارجية كانت أم داخلية ، وهو أيضاً ملائم للظروف الكلامية ومتماسك . وبالامكان التمييز بين ملاءمة السلوك اللغوي للظروف وبين سيطرة المثيرات على هذا السلوك . فملاءمة السلوك اللغوي للظروف ترتد إلى خارج إطار التفسير الآلي الميكانيكي وتندرج في مجالات الابداع الفكري الانساني .

الكفاية اللغوية وقواعد اللغة

إنّ الدراسات الألسنية الدقيقة التي أجريت في إطار النظرية التوليدية والتحويلية ، قد أظهرت أنّ المفاهيم والمبادىء السلوكية ، وإن توصَّل بعضهم الى توضيحها ، تبقى غير ملائمة للاستعمال اللغوي بصورة أساسية . فالبنى الممكن تبيانها من خلال تطبيق المبادىء السلوكية ليست حقيقةً البنى القائمة ضمن الاستعمال اللغوي . والمظهر الابداعي في اللغة مرتبط بتنظيم قواعد يتيح لمن يدركه أن ينتج عدداً لا متناهياً من الجمل وأن يفهم أيضاً ، بموجب التنظيم نفسه عدداً لا متناهياً من الجمل ينتجها الآخرون . والجدير بالذكر أن عدد قوانين تنظيم القواعد هذا محدود . مع هذا ، ينتج هذا التنظيم المحدودة قوانينه عدداً لا متناهياً من الجمل .

واضح أن هذا التنظيم من القواعد أي القواعد التوليدية والتحويلية التي تتوسَّل النظرية الألسنية وضعها ، لا يُمكن تحديده بواسطة المثير . يلزم في هذا الاطار ، زيادة على مفهوم السلوك والاكتساب مفهوم مرتبط بما قد اكتسبه الانسان ويستعمله ، أي باللغة ، وهو والمفهوم الذي نسمِّيه بالكفاية اللغوية . وهذه الكفاية اللغوية خارجة عن حدود علم النفس السلوكي وذلك لانها حقيقة عقليَّة كامنة وراء السلوك الكلامي .

تميِّز النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية بين الكفاية اللغوية وبين الأداء الكلامي . فالكفاية اللغوية تُحدَّد بانها معرفة متكلم اللغة بقواعد لغته بصورة ضمنية ، وبأنها قدرة المتكلم على أن يجمع بين الاصوات اللغوية وبين المعاني في تناسق مع قواعد لغته . وهذه الكفاية اللغوية هي التي تقود عملية تكلم الانسان وهي ، بالتالي ، مختلفة نوعياً عن كل ما يُمكن وصفه من خلال اعتماد مفاهيم علم النفس السلوكي .

فالكفاية اللغوية ، كحقيقة عقلية ، قد طوّرها الانسان في ذاته ، من خلال ترعرعه في بيئته واكتسابه لغتها ، وهي التي تقود عملية التكلم ، أي هي التي توجه الاستعمال اللغوي . والتمييز بين الكفاية اللغوية وبين الاستعمال اللغوي الذي نسميه بالاداء الكلامي ، مبدأ عقلاني ثابت تقوم عليه الألسنية التوليدية والتحويلية . فالأداء الكلامي هو الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معين . ولا بد لمتكلم اللغة من أن يلجأ في أدائه الكلامي الى قواعد الكفاية اللغوية بصورة ضمنية .

إن القواعد الضمنيةهذه ، القائمة ضمن الكفاية اللغوية ، لا يمكننا التوصل إليها ، فقط ، من خلال استقراء السلوك اللغوي . وذلك لأن الأداء الكلامي ، وإن يكن يعكس الكفاية اللغوية ، فهو ينحرف عنها ، إذ أنّه يشتمل ، بصورة عامة ، على عدد من المظاهر الخاصة التي لا ترتبط بالتنظيم اللغوي ، والتي تعزى إلى عوامل سيكولوجية وفيزيولوجية بالغة التعقيد وخارجة عن إطار اللغة .

إنّ المسألة التي تواجه الألسني هي في أن يحدِّد ، من خلال معطيات الأداء الكلامي ، تنظيم القواعد الضمنية الذي يستوعب المعرفة اللغوية منذ مراحل الطفولة ، والذي يستعمله الانسان ، في الواقع ، في أدائه الكلامي الفعلي . وهذه القواعد هي إلى حد كبير حقيقة نفسانية ، ولا يُمكن اكتشافها ضمن المدوَّنة الكلامية ، إنما تُوجد بصورة ضمنية في عقل المتكلم . والسلوك الكلامي لا يعكسها بصورة تامة .

ترفض النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية والحالة هذه ، اعتماد الاستقراء كمنهجية وحيدة في البحث الالسني ، كما يحصل في إطار المذاهب السلوكية . كما أنها ترفض أن تحصر بحثها في المدوّنة أو في السلوك الكلامي عامة . في المقابل ، تعتمد هذه الألسنية منهجية استنباطية ـ استقرائية تتوسّل على ضوئها وضع أنموذج متكامل لتنظيم القواعد الكامن ضمن الكفاية اللغوية .

إن السلوك الفعلي لا يمكنه ، في الواقع ، تقديم الصورة الوافية عن الأوالية القائمة وراءه . حتى في مجال السلوك الحيواني ، ما من شيء ظاهر في سلوك الفأر ينم على أن لديه معرفة بطرق الخروج من المتاهات . ولولم تتم الاختبارات في هذا المجال لكنا نجهل ، حتى الآن ، هذه الميزة التي تمتلكها الفئران . فلا بد ، إذاً ، من التمييز بين المعرفة الكامنة وبين السلوك الفعلي .

لنعد الى القواعد التي تقود عملية التكلم . إنّ مفهومي المثير والاستجابة للمثير لا يمكنهما ، في الواقع إلاّ اكتشاف قواعد شبيهة بتلك التي ينتجها الأنموذج الماركوني ، أي قواعد محدودة الحالات ، وهي كناية عن أوالية تستطيع أن تمر بعدد محدود من الحالات ، فترسل كلمة كلما انتقلت من حالة الى أخرى ، فتتكون الجملة عبر تتابع الكلمات الحاصل خلال الانتقال من حالة أوّلية إلى حالة نهائية[١٤] .

لا ينفع هذا الأنموذج في إطار تفهم بنى الجمل ولا في إطار تحليل المقدرة اللغوية الانسانية التي تنتج عدداً لا متناهياً من الجمل المكوِّنة للغة . فنحن بحاجة ، كما أصبح معلوماً ، الى الأنموذج التوليدي والتحويلي الذي بامكانه تحليل القضايا اللغوية ، والذي يكوِّن أنموذج الكفاية اللغوية في إطار النظرية التوليدية والتحويلية .

عملية اكتساب اللغة والبنى العقلية الفطرية

يؤكّد شومسكي باستمرار على أنه لا بد لنا ، لتطوير المفاهيم النظرية الألسنية ، من أن نتخذ موقفاً مناقضاً للمذاهب السلوكية والتجريبية ، وذلك بالتخلي عن الافكار التي سادت منذ أواخر القرن الماضي ، بأن النظرية لا تُبنى إلا من خلال المعطيات الممكن لحظها مباشرة ، وبأنّ الاكتساب اللغوي يرتد فقطالى تأثير المحيطعلى الطفل الذي يكتسب لغة بيئته . فالمذاهب هذه لا يمكنها تحليل عملية اكتساب اللغة ، لأن ما يلزمها هو الاعتقاد بأن المعرفة الفطرية بالمبادىء الكلية التي تخضع لها بنى اللغة الانسانية ، والتي يمتلكها الطفل الرضيع ، هي التي تقود عملية الاكتساب اللغوي . وهذه المبادىء هي جزء مما يُسمى بالفكر وهي قائمة في العقل الانساني بشكل من الاشكال ، وهي شبيهة الى حد ما بالافكار الفطرية في نظرية ديكارت الفلسفية ، والتي تعود جذورها العقلانية الى أفلاطون .

من هنا نفهم ، لماذا لا تتقبَّل النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية محاولات علم النفس السلوكي تفسير اللغة في إطار نظرية الاكتساب التي تقرن المثير بالاستجابة الى المثير . فهي ترى في المحاولات هذه ضعفاً أساسياً عائداً الى عدم اعتقاد القائمين بها بأنّ وراء عملية اكتساب اللغة هناك قدرة عقلية فطرية قائمة بصورة طبيعية عند الطفل وتعدُّه لاكتساب اللغة . زد الى ذلك أن تلك المحاولات تنطلق من النظرة الى اللغة على أنها تنظيم من العادات الكلامية . فلا تعي ، بالتالي ، التمييز الذي تُشدِّد عليه النظرية التوليدية والتحويلية بين الكفاية اللغوية وبين الأداء الكلامي ، وأن اللغة قبل كل شيء هي كفاية لغوية . فمن الخطأ الاعتقاد بأن الطفل يكتسب اللغة عن طريق اختبار الجمل المحتملة الوجود في اللغة ، وذلك من خلال التمرن عليها وترددها لكي يتسنّى له الالمام بالمثير وبالاستجابة للمثير في الكلمات المتلاحقة . وبغضّ النظر عن أنّ هذه الترددات والتمارين المتواصلة بطيئة

ومكلفة جداً ، لدرجة أنه من المستحيل تحقيقها خلال المدة القصيرة التي يكتسب الطفل فيها لغته ، فانها لا تتيح له أن يكتسب الجمل المتجددة التي لم يسبق له سماعها من قبل .

عندما نُقر بأن متكلم اللغة قد اكتسب تنظيم قواعد يُتيح له أن ينتج جمل لغته فالسؤال الذي يطرح نفسه علينا هو التالي : ما يجب ان يكون عليه الفكر الانساني لكي يستطيع الانسان أن يستوعب بصورة ضمنية تنظيم القواعد هذا ؟

للجواب عن هذا السؤال نقول بأن الفكر يختص ببنى فطرية مركّبة ومعقّدة وغير مكتسبة تؤهّله لاستيعاب تنظيم قواعد اللغة .

في الواقع ، يكتسب الطفل لغة بيئته خلال مدة زمنية قصيرة نسبياً، ومن خلال تعرضه لجمل هذه اللغة، ويصعب علينا أن نقول إن اكتسابه اللغة هذا يتم نتيجة عمل تعميمي يقوم به على مجموعة الجمل هذه . فالطفل في الواقع يقوم بعمل ذهني بالغ الأهمية والتعقيد حين يكتشف ، بقدراته الخاصة ، تنظيم القواعد الضمني الكامن في كفايته اللغوية والذي يُتيح له تكلم لغته[١٥] .

من الطبيعي أن نفترض وجود علاقة وثيقة بين خصائص الذهن الفطرية وبين التنظيم اللغوي . وذلك لأن اللغة « لا وجود لها خارج إطار تصورها العقلي »[١٦] . بل لا نستغرب وجود قيود أو ضوابط معرفية يضعها الطفل على التنظيم اللغوي ، خلال اكتسابه اللغة ويضعها أيضاً الكبار حين يستعملون اللغة .

إنّ الطفل يكتسب أية لغة إنسانية من دون أي تمييز . والتفسير الذي يمكن اعتماده في هذا المجال هو أنّ الطفل يمتلك الاشكال العامة المشتركة بين كل اللغات أي ما نسميه بالقواعد الكلية ، كجزء من كفايته الذاتية الفطرية . وكون التنظيم اللغوي ، كما نعلم حالياً ، بالغ التعقيد ، يستحيل على الطفل أن يكتسب اللغة ما لم يكن قائماً في ذهنه الالمام بالقواعد الكلية . فتكون عملية اكتساب اللغة بمثابة إجراء يقوم به الطفل لاكتشاف قواعد لغته بالذات ، من ضمن القواعد الكلية الكامنة ضمن كفايته اللغوية الفطرية . ومن الطبيعي والحال هذه ، أن لا تعمل المبادىء الفطرية إلا من خلال تفاعلها مع المادة اللغوية التي يتعرّض لها الطفل . فالملكة اللغوية تبني القواعد عندما تتوافر لها الاثارة الملائمة في مراحل النمو الملائمة .

إن الرسم التخطيطي الذي يتّضح في إطار النظرية التوليدية والتحويلية لعملية الاكتساب اللغوي هو التالي :

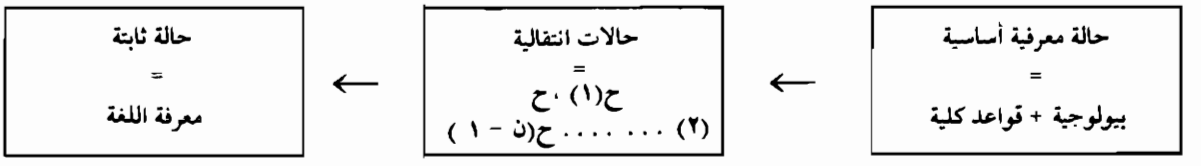

يمر العقل الانساني ، انطلاقاً من حالة معرفية أساسية محدّدة بيولوجياً ومختصّة ، في ما تختص به ، بالقواعد الكلية ، بعدّة حالات معرفية وسيطة ، ليصل في النهاية الى حالة ثابتة تتعدّل فيما بعد بصورة طفيفة في ما يتعلّق بمعرفة اللغة . وتتمثل هذه الحالة المعرفية الثابتة بتنظيم قواعد ومبادىء تتلاءم مع القواعد الكلية وتقوم ضمن ما نسميه بالكفاية اللغوية .

ان الانتقال من الحالة الأساسية الى الحالة الثابتة النهائية مروراً بالحالات الوسيطة المتعددة يتم بالتوافق مع النمو الطبيعي وعبر تعرض الطفل البشري الى لغة بيئته . فالعمل الذي تقوم به الخاصية الانسانية المختصّة في تطبيق الخبرة اللغوية على الحالات المعرفية هو ما يُفترض دراسته ضمن نظرية الاكتساب . ومما لا شك فيه أن نظرية الاكتساب ، في ظلّ الألسنية العقلانية ، تختلف اختلافاً جذرياً عن نظرية الاكتساب السلوكية ، وذلك لأنها تنبع من النظرة العقلانية الى اللغة والى سائر قضايا المعرفة الانسانية . ويُشير شومسكي بوضوح الى هذه الناحية بالذات عندما يقول : « في مجال الادراك كما في مجال التعلّم ، يقوم العقل بدور فاعل في تحديد ميزة المعرفة المكتسبة »[١٧] .

الهوامش والمراجع

(١) Noam Chomsky ألسني أميركي ولد في مدينة فيلادلفيا في ولاية بنسلفانيا سنة ١٩٢٨ . يعلّم حالياً في معهد ماسيشوست التكنولوجي M. I. T. . قد استندنا في بحثنا هذا على مؤلفات شومسكي التالية :

- (1959) Review of BF Skinner Verbal Behavior in **Language** **35**, p. 26–56.
- (1965) **Aspects of the Theory of Syntax** Cambridge Mass. the M. I. T. Press.
- (1968) **Language and Mind** Trad. fr. Ed Payot (1970).
- (1971) **Problems of Knowledge and Freedom** New York Basic Books London; Barrie and Jenkins (paperback Fontan).

- (1973) **For reasons of State**. New York Pantheon.

- (1975) **Reflections on Language** New York Pantheon.

- (1979) dans **Théories du langage, Théories de l'apprentissage** Paris seuil.

(٢) تظهر هذه النظرة الى اللغة عند B. F. Skinner ، وهو عالم نفس أميركي يعتمد المذهب السلوكي . ولد في ولاية بنسلفانيا سنة ١٩٠٤ ، ودرّس في جامعة هارفرد . من مؤلفاته :

- (1957) **Verbal Behavior** New York Appleton- Century- Grofts Inc.

- (1971) Beyond Freedom and Dignity Pengouin Books (1973).

(٣) J. B. Watson (١٨٧٨ - ١٩٥٨) ، عالم نفس أميركي وضع البرنامج النظري للمذهب السلوكي ونشره على نطاق واسع . قام باختبارات عديدة في مجال السلوك الحيواني وفي مجال سيكولوجيا الأطفال . من مؤلفاته :

- An Introduction to Comparative Psychology (1914).

- Psychology From the Stand Point of a Behavioris (1919).

- Behaviorism (1924).

(٤) - L. Bloomfield (1933) **Language** New York Holt.

(٥) انظر N. Chomsky (1959, 1968, 1973, 1975) - ذكرنا هذه المراجع في الحاشية رقم (١) .

(٦) انظر: N. Chomsky (1973) For Reasons of State New York: Pantheon.

(٧) - N. Chomsky (1977) **Dialogues avec Mitson Ronat** Paris: Flammarion p. 106.

(٨) انظر - N. Chomsky (1959) Review of Skinner's Verbal Behavior **Language 35** p. 26- 58

(٩) تُعتبر النظرية التوليدية والتحويلية حالياً أهم نظرية ألسنية . أنظر كتابنا :

- م . زكريا (١٩٨٢) الألسنية التوليدية وقواعد اللغة العربية (١ - النظرية الألسنية) . بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر .

(١٠) خصّص شومسكي كتاباً بعنوان «الألسنية الديكارتية» (فصل في تاريخ الفكر العقلي) ، حيث يُظهر تقارب نظريته العقلانية مع الآراء الفلسفية العقلانية ، وبنوع خاص آراء ديكارت وهمبولد .

- N. Chomsky (1966) **Cartesian Linguistics,** New York and London Harper and Row.

(١١) انظر الفصل الاول من كتابنا :

- م . زكريا (١٩٨٠) الألسنية (علم اللغة الحديث) : مبادئها وأعلامها : بيروت .

(١٢) انظر - N. Chomsky (1979) dans **Théories du langage, Théories de l'apprentissage** Paris, Seuil p 269.

(١٣) انظر مقالنا :

- م . زكريا (١٩٧٩) : الأبعاد النظرية والتطبيقية لتمرين القواعد في المجلّة التربوية ١٩٧٩ العدد ٤ . بيروت المركز التربوي للبحوث والانماء صفحة ٤٥ - ٥٤ .

(١٤) إن الأنموذج هو مفهوم أساسي في الألسنية . فحيث لا يمكن لحظ أوالية اللغة بصورة مباشرة يرى الألسني نفسه مضطراً الى بناء أنموذج يفترض أن يحاكي عمله عمل الذهن الانساني ، في عملية التكلم . لمزيد من التفصيل انظر كتابنا :

- م . زكريا (١٩٨٠) الألسنية (علم اللغة الحديث) : مبادئها وأعلامها . بيروت ، ص ٧٩ - ١٠٠ و ص ١٦٢ - ١٦٦ .

(١٥) تُظهر الابحاث الحديثة في مجال نمو الطفل اللغوي أنّ الطفل يتكلم في الواقع لغة تتلاءم ومراحل نموه الطبيعي ، كما تُظهر أن لغة الطفل متمايزة عن لغة الكبار مما يتنافى مع الاعتقاد الذي كان سائداً بأن لغة الطفل كناية عن صورة مصغّرة عن لغة الكبار . لمزيد من التفصيل راجع مقالنا :

- م . زكريا (١٩٧٩) : نمو الطفل اللغوي في المجلة التربوية ١٩٧٩ العدد الاول . بيروت : المركز التربوي للبحوث والانماء ص ١٦ - ٢٨ .

(١٦) - N. Chomsky (1968) Language and Mind Trad Francaise Paris; éd Payot p. 135.

(١٧) - N. Chomsky (1968) Language and Mind trad française. Paris; éd Payot p. 140.